المبادئ التعليمية والتربوية في سورة العلق

الدكتور أحمد عبد الرحمن عيسى

محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نبىء باقرأ ، وأرسل بالمدثر .

والرسالة هى خطاب الله تعالى له : " يأيها المدثر قم فأنذر " .

جاء محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بدين طابعه الحضارة والتقدم من أول آيات هبط بها الوحى على قلبه الشريف فى سورة العلق : " اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم . " .

خمس آيات قصار هى بواكير الوحى ، ومفتاح الحضارة التعليمية والتربوية . هى دعوة صريحة الى العقل البشرى لكى ينطلق فى اكتشاف ما أودعه الله ـ سبحانه ـ فى الانسان من علم أسرار النفس ، واكتشاف ما أودعه ـ سبحانه ـ فى الطبيعة من علم أسرار الطبيعة . ومن العجيب الذى نشاهده ونلمسه الآن ، أن العقل البشرى حقق تقدما ملموسا فى علم أسرار الطبيعة (التكنولوجيا) ، ولكنه لم يستطع أن يحقق مثل هذا التقدم فى علم أسرار النفس (السيكولوجيا) .

ربما يرجع هذا التفاوت الى امكان تطبيق التفكير العلمى على مظاهر الطبيعة المادية الملموسة أمامنا ، لكشفأسرارها وقواعدها ، واستنباط مافيها من موارد ، ثم امكان الافادة من تلك التطبيقات فى تطوير الحياة المعاصرة كالتصنيع ونمو المدن واختراع الراديو والتليفزيون والمواصلات السريعة وأبحاث الفضاء وغيرها .

أما السيكولوجيا فهى تحليل السلوك الانسانى المعقد باعتباره مركبا نفسيا من عوامل البيئة وعوامل الوراثة ، وما يكتنف البيئة والوراثة من غموض فى كثير من الاحيان .

نعم يبدو أن الطبيعة الكونية واضحة ، وأن الطبيعة الانسانية غامضة .

.. ..

التفسيرالمتعارف لسورة العلق

اتجه المفسرون فى جميع العصور حتى فى عصرنا الحاضر – وما أعظم قدرهم – الى أنالغرض الاساسى فى هذه السورة ، هو تعليم الله لنبيه الكريم طريقة الاقناع فى الدعوة اليه ،ليواجه بذلك عبدة الأوثان ، فلا يمكنهم انكار عقيدة التوحيد .

وهذا اجتهاد صحيح ، ولكننا فى هذا العصر لانكتفى به أو نقتصر عليه . بل لابد من أن نضيف اليه جديدا يمليه علينا طابع العصر .

فحينما نستعرض صنيع المفسرين فى هذه السورة ، ابتداء من الزمخشرى فى القرن السادس الهجرى (توفى سنة ٥٣٨هـ) ، والفخر الرازى من رجال القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى (توفى سنة ٦٠٦هـ) ، والقرطبى فى القرن السابع الهجرى (توفى سنة ٦٧١هـ) ، ثم ننتقل الى الالوسى فى القرن الثالث عشر الهجرى (توفى سنة ١٢٧٠هـ) ، حتى نلتقى بالمرحوم سيد قطب فى عصرنا الحديث القريب منا . حينما نستعرض صنيع هؤلاء المفسرين الكبار ومن يدور فى فلكهم من أهل الفضاء ، نجدهم جميعا متقاربين فى شرح هذه السورة على أساس أنها تعليم الله لنبيه طريقة الاقناع فى الدعوة الى عقيدة التوحيد وهى ـ لاشك ـ هدف الأهداف فى التربية الاسلامية .

وخلاصة تفسيرهم لهذه السورة : اقرأ القرآن يامحمد مستعينا باسم ربك الذى خلق ، أى تفرد بصفة الخلق والبدء. خلق الانسان من علق ، جمع علقة وهى القطعة اليسيرة من الدم الغليظ تعلق بجدار الرحم فيتكون منها الانسان .

وهذا الأمر الأول بالقراءة هو لنفسك يامحمد لكى تتعلم . ويأتى الأمر الثانى (اقرأ وربك الأكرم) لكى تبلغ الدعوة وتعلم الناس ، فهما أمران بالقرآن : الأول للتعلم والاستعداد (اقرأ باسم ربك) . والأمر الثانى للتعليم والتبليغ (اقرأ وربك الأكرم) .

يقول الفخر الرازى : المناسبة بين العلق الذى يتكون منه الانسان ، وبين القلم الذى يتعلم به الانسان : أن ا ول

أحوال الانسان كونه علقة ، وهى أخس الأشياء . وآخر أمره هو صيرورته عالما بحقائق الاشياء ، وهو أشرف مراتب المخلوقات .

ويقول أيضا : اقرأ (الاولى) اشارة الى معرفة الربوبية (اقرأ باسم ربك الذى خلق) . واقرأ (الثانية) اشارة الى النبوة (اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم) . وفيها تنبيه على فضيلة القراءة والكتابة .

هذا هو خلاصة المقطع الأول من السورة ، وهو خمس آيات هو أول مانزل به الوحى من القرآن الكريم فى قول معظم المفسرين نزل بها جبريل على محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو قائم على حراء فعلمه هذه الآيات الخمس ، ثم نزلت بقية السورة بعد ذلك فى شأن أبى جهل . ثم أمر الله نبيه الكريم بضم ذلك الى أول السورة حتى صارت تسع عشرة آية .

والمقطع الثانى ثلاث آيات هى قول الله تعالى : (كلا ، ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى . ان الى ربك الرجعى).

يقول الفخر الرازى : أكثر المفسرين على أن الانسان هاهنا ، هو أبو جهل . ثم منهم من قال : نزلت السورة من هاهنا الى آخرها فى أبى جهل . وقيل نزلت من قوله : (أرأيت الذى ينهى . عبدا اذا صلى ..) الى آخر السورة فى أبى جهل حين رآى النبى يصلى ، فقال : ألم أنهك عن هذا ؟ فزجره النبى صلى الله عليه وسلم . فقال أبوجهل : انك لتعلم أنى أكثر أهل الوادى ناديا ، فنزل قول الله تعالى (فليدع

ناديه . سندع الزبانية) فكأنه تعالى لما عرّفه أنه مخلوق من علق فلا يليق به التكبر ، فهو عند ذلك ازداد طغيانا وتعززا بماله ورياسته فى مكة .

ثم عمم الرازى الغرض من هذا السياق فقال : وتحقيق الكلام فى هذه الآية : (كلا ان الانسان ليطغى) أن الله لما ذكر فى مقدمة السورة دلائل ظاهرة على التوحيدوالقدرة والحكمة ، أتبعها بما هو السبب الأصلى فى الغفلة عنها وهو حب الدنيا والاشتغال بالمال والجاه والثروة .

.. ..

أما المقطع الثالث وهو الاحدى عشرة آية من قوله تعالى: (أرأيت الذى ينهى . عبدا اذا صلى) الى ختام السورة (كلا لاتطعه واسجد واقترب) فهو موقف خاص بطغيان أبى جهل . ثم يأتى الأستاذ سيد قطب فينزع الى التعميم فى سياق السورة بعد المقطع الأول الخاص بنزول الوحى فيقول :

ذلك شأن المقطع الأول من السورة (الآيات الخمس الاولى) أما بقيتها فواضح أنها نزلت فيما بعد ، فهى تشير الى مواقف وحوادث فى السيرة لم تجىء الا متأخرة بعد تكليف الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ابلاغ الدعوة والجهر بالعبادة وقيام المشتركين بالمعارضة .. .. .. ولكن هناك تناسقا كاملا بين أجزاء السورة ، وتسلسلا فى ترتيب الحقائق التى تضمنتها بعد هذا المطلع المتقدم يجعل السورة كلها وحدة متناسقة .

هذا هو التفسير المتعارف لسورة العلق كما يراه جمهور المفسرين الكبار ، ونحن معهم فيما ذهبوا اليه ، ولكننا نقول : ان تقدم الابحاث التربوية والنفسية والتشريحية والتكنولوجية ، كل ذلك أوحى الىّ بنظرات آخرى فى هذه السورة آخذت أستعرض فى أبعادها ما تهدف اليه من المبادىء التعليمية والتربوية .

وفى هذا الصدد أرى لزاما على ، أن أقدم بين يدى السورة بعض ما تمتاز به التربية الاسلامية من صبغة انسانية ونزعة عملية تعميرية .

.. ..

اتجاهان بارزان

ينطوى مفهوم التربية الاسلامية على اتجاهات كثيرة ،تجتمع كلها وتتآزر حول محور واحد ، هو عقيدة التوحيد النقى الخالص لله سبحانه ، ولكنى أخص بالحديث هنا اتجاهين بارزين استقيهما من سورة العلق وفيها أول مانزل من الوحى .

الاتجاه الاول : الصبغة الانسانية .

وهنا أطرح هذا السؤال : هل آن للبشرية أن تعود الى الاسلام من جديد ؟

سؤال أطرحه ، لافى مجال الدراسات الاسلامية أو الدينية فحسب ، بل أيضا فى مجال الدراسات التربوية والنفسية .

فالتربية الاسلامية تمتاز بالصبغة الانسانية ، وهاهى ذى حضارة العصر الحديث الآن ، أخذت أساليب الحياة فيها تصطبغ

بالصبغة الانسانية وتلوذ بها وهى مثقلة بالجراح ، وقد وجدت هذه الحضارة شفاءها فى التربية الاسلامية ، ومن هنا كان اللقاء لقاء العصر الحديث بالتربية الاسلامية فى رحاب الصبغة الانسانية ، وهو لقاء أتى به تطور الفكر التربوى فى دورانه من فجر الانسانية الى يومنا هذا ، فاحتكاك المفكرين التربويين الأجانب بالاسلام فى أرضه وشعوبه ، أكد لهم فضل الاسلام واستمرار الحاجة اليه ، وليس معنى هذا أن الحضارة وصلت الى ما سبق أن وصل اليه الاسلام فدوره قد تحقق فى غيره كما يزعم بعض المغرورين ببريق هذه الحضارة ، بل نقول إنها ثابت الى الرشد الاسلامى ولاذت به لتظل تنهل منه .

فالاسلام يدعو الى تعميم التعليم واشاعته بين جميع الناس دون تفرقة ولا تمييز ، تعليم الانسان أياكان هذا الانسان (اقرأ وربك الاكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم) .

(الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان) . ويقول الرسول ـ صلوات الله عليه ـ : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) والمراد بكلمة (مسلم) هنا هو الجنس الذى يشمل جميع الانواع ، أى جنس كل من يدين بالاسلام ذكرا كان أم أنثى .

وفى هذا العصر الحديث أصبحت كل دولة تفرض على نفسها تعلم جميع أبناء الشعب ذكورا واناثا الى سن معينة على الأقل يسمونها فترة الالزام . دعا الى هذا علماء التربية وفلاسفتها ، وقد حدث أن كان التعليم فى بعض الأزمان محرما على بعض الطبقات .

أصبح العصر الحديث ينظر الى الانسان منحيث هو انسان اذ قامت دعوات المصلحين فى كل مكان تنادى بحق الانسان فى أن يحيا ويسعد ويتمتع بخيرات مجتمعه • وصار على كل مجتمع أن يضع كل مقدراته المادية والادبية لاسعاد أفراده • الكل انسان له حقوق الانسان ، بصرف النظر عن التناقضات الفردية أو الموضعية التى مازالت تدين بالعنصرية الى الآن •

نعم حدث أن قام الفكر التربوى القاصر فى بعض العصور يدعو الى الطبقية فى التربية والتعليم ، فبعض الطبقات هى التى كان لها الحق فى أن تتعلم دون سواها • حدث ذلك فى اليونان ولدى الرومان وعند قدماء المصريين ، وحتى فى عصور النهضة لدى بعض الدول ، فعملوا بذلك على ازدياد الهوة بين الطبقة التى تعودت أن تنظر الى الشعب من أعلى وبين الطبقات الأخرى • ولكن العصر الحديث قام بحمل الراية الى تذويب هذه الفوارق المصطنعة بين أبناء المجتمع الواحد ثم أخذت النظرة الانسانية تتسع فتنظر فى مستوى الطبقات على المستوى العالمى، وتطور الفكر التربوى فنادى بأن التعليم كالماء والهواء من حق كل انسان • وهنا التقى بالتربية الاسلامية وشاب اليها •

كانت الثروة المادية هى أعلى قيمة من الانسان فى كثير من المجتمعات ، وفى سبيلها كانت الثروة البشرية تهون ، فالبشر خدم والمادة هى السيد المخدوم ، ولكن التربية الاسلامية قلبت هذا الاتجاه وجاء العصر الحديث ينضوى تحت لوائها ، اذ نادى كما فعلت التربية الاسلامية من قبل ، بأن ثروة الامة أو الشعب يجب أن تقاس بمدى الطاقة البشرية أو ماتزخر به من الملكات والمواهب ، وقام الفكر التربوى

يضع المناهج والبرامج التعليمية لتعلية النوع البشرى وتسخير المادة فى ترقيته وتمكينه من السيطرة على قوى الطبيعة ، وهذا هو مادعا اليه الاسلام .

أصبح العصر الحديث ينظر الى المربين والمعلمين والمثقفين على أنهم مكلفون بتعليم الناس ، ولايجوز لهم أن يكتموا ما عندهم من علم عن سواد الشعب ، أو أن يخفوا بعضه ويظهروا بعضه . وهذه نظرة انسانية تلتقى مع التربية الاسلامية . يقول الله تعالى : (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) وقد قال الامام الغزالى فى تعليقه على هذه الآية : انها توجب على المتعلم تعليم الناس وجوبا لاشك فيه ، كما أن كتمان العلم محرم من الآية الأخرى التى يقول الله تعالى فيها :(وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) . وقد تواترت أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الصدد ، كما فى الحديث الشريف : (أيما رجل آتاه الله علما فكتمه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار) هذا هو الاتجاه الذى نعنيه وهو الصبغة الانسانية فى التربية الاسلامية .

الاتجاه الثانى : النزعة العملية التعميرية وهذه تقوم على اتخاذ الوسائل واعداد العدد الصناعية والآلات الوسيطة ، وقد ورد النص عليها أيضا فى أول وحى ينزل بسورة العلق ، فقال تعالى :(علم بالقلم) وفى هذا يقول شوقى :

سبحانك اللهم خير معلم ... علمت بالقلم القرون الأولى

فالقراءة موصولة بالكتابة ، وهذه وسيلتها القلم . والكتابة

رمز الحضارة ، لما تعتمد عليه من توفير الأدوات الحضارية كالقلم والورق والحبر وآلات الطباعة والنسخ وتصويرالمخطوطات والمطبوعات وتسجيل التراث الفكرى ، وكل ماخلق الله وسيخلق من أدوات القراءة والكتابة والطباعة ، كمطابع اللينوتيب والانترتيب التى أصبحت تطبع فى الساعة الواحدة مئات الآلاف من نسخ الصحافة اليومية كجريدة المدينة والرياض والجزيرة وغيرها .

كما أن كلمة (علق) كانت مفتاح العقل البشرى الى البحث والتنقيب والتأمل فى الأصل التكوينى للانسان وما يؤدى اليه من العلم التجريبى .

وقد أقسم الله تعالى بالدواة والقلم ، فقال تعالى فى موقف الدفاع عن الرسول وتبرئته من تهمة شنيعة : (ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون) . وقالتعالى:(قل لو كان البحر مدادا لكمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى) .

والعلم فى نظر القرآن الكريم ليس خاصا بعلم الشرائع والاحكام من حلال وحرام ، بل يدخل فى صميمه الى جانب ذلك أيضا ، كل علم يقوم به بناء الدنيا وتعمير الكون والسيطرة على قوى الطبيعة ، كالطب والصيدلة والتصنيع وتحصيل الأموال واستنبات الارض وتنمية الثروات الحيوانية والتسليح واجادة فنون الدفاع والهجوم وسوى ذلك كثير . (وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون). فالعلم بمعناه العام الشامل هو العنصر الأول من عناصر الحياة فى الاسلام .

.. ..

أعود الى سورة (العلق) بمقاطعها الثلاثة فأقول وبالله التوفيق .

المقطع الأول

وهو يصور أن الله هو الخالق والمعلم . وهذه حقيقة الحقائق ، وقد جاء ذلك فى خمس آيات . يقول الله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم) .

والتعليم والتربية كلمتان امتزجتا فى أذهان الناس كأنهما شىء واحد ، وذلك لطول اقترانهما فى المجال المدرسى ولأن كلا منهما فيه تنمية واكتساب . والواقع أن بينهما فرقا دقيقا ، وهو أن سنة الحياة تقتضى البدء بالتعليم أولا ،ومفتاحه تعليم القراءة والكتابة ، ومتى أصبح المرء قارئا كاتبا سهل تطويعه للتربية .

وبهذا يبدو لنا أن التعليم من الناحية المظهرية ،عملية مادية ملموسة ، وتبدو لنا التربية عملية معنوية لاتظهر نتائجها بالسرعة التى تظهر بها نتائج التعليم .

والتعليم هو رائد التقدم والرقى ، كما هو واضح من حضارات الأمم التى سبقت غيرها فى التعليم ، وكما هو واضح أيضا أن التعليم رائد الحرية ، فالشعوب الجاهلة يسهل قيادها واخضاعها كما هو مقرر فى تاريخ الاستعمار . وعندما يضطر الاستعمار الى أحدهما ، يلجأ الى التعليم فقط دون التربية . وهو نوع من التعليم يقصد به اعداد موظفين آليين يستخدمهم لادارة أعماله فقط فى مستعمراته ، ولايكون من شأنه

ايجاد نابغين ولاقادة،ولا أصحاب رأى عام فى البلاد التى يستعمرها ولهذا يحارب الاستعمار دائما الدين والأدب والثقافة والتعليم العالى والتخصص وكل ما من شأنه تربية الشعوب تربيةمعنوية .

فالتعليم تلقين ، والتربية تنمية القدرة على الابتكار والتمييز والتصرف المستقل والتكيف مع البيئة ومواجهةكل موقف بما يناسبه .

ولكن التعليم الآن أصبح تربية ، والتربية فيها تعليم، ومن الصعب أن نجرد أحدهما من مصاحبة الآخر له ودعمه اياه وعلى هذا الأساس وهو مزج التعليم بالتربية،قامت التربية الاسلامية قراءة وكتابة وتعبئة روحية وتربية عقيدة تقتحم الأهوال ، وتستعذب الشهادة فى سبيل الله .

بدأت السورة بالتعليم فى قوله تعالى : (اقرأ) ومزجته بالتربية فى قوله تعالى : (باسم ربكالذى خلق . خلق الانسان من علق) . فالرب هو المربى وهو مفيض التربية على المتربى ، وهو داعى فكرة وعقله الى الانطلاق فى البحث واكتشاف ما أودعه الرب من أسرار فى النفس البشرية والطبيعة الكونية ، وهنا تبرز كلمة (منعلق) وتحتاج الى وقفة عندها للتأمل والتدبر.

(خلق الانسان من علق) جمع علقة . والعلقة هى القطعة اليسيرة من الدم الرطب الغليظ الشديد الحمرة ، تعلق بجدار الرحم ويتكون منها الجسم الوليد فى بطن أمه .

وهنا نتساءل : لم عبر القرآن هنا فى أول وحى ينزل بمكة بقوله تعالى : (خلق الانسان من علق) ولم يقل من

(نطفة) كما جاء بعد ذلك فى آية الحج التى نزلت بعد الهجرة الى المدينة ؟

يقول الله تعالى فى سورة الحج : (يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث ، فانا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة ، فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) .

ففى هذه الآية المدنية قال : (من نطفة ، ثم من علقة) وهناك فى أول وحى نزلت بمكة تخطى دور (النطفة) وبدأ رأسا بمرحلة (العلقة) فقال : (خلق الانسان من علق) .

والسر فى ذلك دقيق تماما ومحكم فى موضعه وهو أن يبدأ بالعلق فى أول وحى نزل بمكة . ذلك لأن (العلقة) هى أول (اتحاد مركب) يتكون منه الانسان ، فالعلقة مركب من ماء الرجل وهو " النطفة " وماء المرأة وهو " البويضة " فالنطفة قطرة ماء منفردة بحيوانها المنوى غير مركبة ، وهى وحدة لا اتحاد لحيوانها المنوى مبدئيا بشىء آخر ،فان اتحدت نطفة الرجل مع بويضة المرأة ، أصبح هذا الاتحاد شيئا جديدا مركبا هو العلقة . فالنطفة فردية ، والعلقة زوجية ثنائية .

فكلمة " علق " اذن تتفق مع كلمة " الانسان " لانها

مجموعة المركب الذى يتكون منه الانسان • وكيف تتكون العلقة ؟ أو كيف تبدأ الحياة فى رحم الأم ؟

الجواب : تلتقى البويضة الأنثوية الناضجة بخلية المنوى الناضج ، وتلتحمان فتكونا خلية واحدة لايزيد حجمها عن حجم رأس الدبوس ، وبهذا تتكون العلقة ، وهى أولى مراحل تكوين الجنين •

هذه الخلية التى أصبحت علقة ، تتفاعل نواتها مع البيئة المحيطة بها فى الرحم ، وهى المادة الهلامية (السيتوبلازم) • وتبدأ فى الانقسام مع مرور الايام فتصبح خليتين متطابقتين تماما ، وتستمر عملية التكاثر والانقسام الى آلاف الملايين من الخلايا ، وبهذا تتكون المضغة ، وهى لحمة قدر ما يمضغ • وهذه هى المرحلة الثانية من مراحل تكوين الجنين ، ثم بعد ذلك ينفخ فيه الروح •

وبعد تكوين المضغة بهذه الطريقة ونفخ الروح فيها ، تتخلق أى تصوّر • وتتمايز عملية التغير فى الخلايا المتكاثرة فتتكون منها خلايا عضلية ، وخلايا عصبية ، وخلايا عظام وما الى ذلك من أنواع الخلايا التى يتكون منها جسم الجنين حتى يكون طفلا يولد •

ثم هناك سر آخر فى التعبير بقوله تعالى فى أول وحى ينزل " خلق الانسان من علق " ولم يقل من نطفة ، ذلك السر هو أن النطفة المفردة لا تتعلق بها أحكام شرعية تنطبق على الانسان• ولكن العلقة المركبة من ماء الرجل وماء المرأة يبدأ بها

ثبوت الاحكام الشرعية وتعلقها بالانسان وتأثيرها فى حياة الناس .

يقول القرطبى فى تفسيره : " ان النطفة ليست شيئا يقينا ، ولا يتعلق بها حكم اذا ألقتها المرأة اذا لم تجتمع فى الرحم ، فهى كما لو كانت فى صلب الرجل ، فاذا طرحته علقة فقد تحققنا أن النطفة استقرت واجتمعت واستحالت الى أول أحوال ما يتحقق به أنه ولد . وعلى هذا يكون وضع العلقة وما فوقها من المضغة ، وضع حمل يبرأ به الرحم وتنقضى به العدة ويثبت لها حكم أم الولد" .

وقال الامام مالك : (ما طرحته المرأة من مضغة أو علقة أو مايعلم أنه ولد اذا ضرب بطنها ، ففيه الغرّة) والغرة مابلغ ثمنه نصف عشر الدية .

وبهذا تتضح لنا مبادىء التعليم والتربية فى المقطع الاول من سورة العلق .

.. ..

المقطع الثانى

وهو يصور لنا مبدأ من مبادىء علم النفس التربوى كما ندرسه اليوم على ضوء تقدم الأبحاث فى هذا المجال . يصور هذا المقطع غريزة حب الظهور مع التسلط والطغيان وهى حقيقة عامة جاءت فى ثلاث آيات يقول الله فيها :(كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى . ان الى ربك الرجعى) .

ومعنى الآيات الثلاث : حقا ان الانسان ليطغى أى ينقلب الى طاغية متكبر متمرد يتسلط على الناس ويبغى الظهور فى الأرض حين يرى نفسه وقد صار غنيا ذا ثروة وقوة مادية أو معنوية ، اعتقادا منه أنه نال ذلك بطلبه وجهده الذاتى غافلا عن أنه نال ذلك باعطاء الله له أو توفيقه اياه . وهذا جهل منه وحمق يرد عليه الله مهددا فى ختام المقطع بقوله : (ان الى ربك الرجعى) أى اليه وحده الرجوع فيجازى الطاغى بما يستحقه .

يقول علم النفس التربوى : ان حب الظهور والتسلط والطغيان ، غريزة اجتماعية فى الانسان يثيرها فيه الشعور بالقوة المادية أو المعنوية ، سواء أكان ذلك مبنيا على أساس واقعى تؤيده التجارب ، أم كان راجعا الى غرور وعقيدة خيالية ، أدى اليها سوء التربية وضعف التفكير . ويصحبها عادة حالة وجدانية ايجابية الى الاعتداد بالنفس الى درجة المغالاة الممقوتة .

وقد تصل أحيانا الى درجة الغطرسة والكبرياء والحط من أقدار الناس وأعمالهم وما يصحب ذلك من الحقد والحسد والاعتداء على حقوق الغير .

هذا هو الجانب السىء فى تلك الغريزة كما أشارت اليه الآيات وعقبت عليه بالتهديد .

وهنا يأتى دور المربين فى الحد من غلواء هذه الغريزة لكى تسمو وتتحول الى شعور متزن بالذات ، واحتفاظ بالكرامة

ومنافسة بريئة وسعى الى منزلة أدبية عليا بين الناس . ويساعد على ذلك ، القدوة الحسنة والتثقيف الدينى الواعى ، والعبرة بما جاء فى قصص الأولين . واذا لم تثمر التربية فى الطاغى ولم يتذكر حقيقة مرجعه الى ربه وهول موقفه بين يديه ، كان لابد أن يتسلط ويتجبر. وهنا يأتى دور المقطع الثالث من هذه السورة .

.. ..

المقطع الثالث

وهو موقف تطبيقى على المقطع الثانى ، اذ هو مثال معين من حب الظهور الكاذب والتسلط والطغيان ، طغيان أبى جهل على محمد صلوات الله وسلامه عليه . وقد ورد ذلك فى احدى عشرة آية قصار ، يقول الله تعالى فيها :
" أرأيت الذى ينهى . عبدا اذا صلى ، أرأيت ان كان على الهدى . أو أمر بالتقوى . أرأيت ان كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى . كلا ، لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندع الزبانية . كلا لا تطعه واسجد واقترب ".

وقد صدّر هذا المقطع بأربعة استفهامات متتالية . جاءت الثلاثة الأولى منها للتعجب ، وكلها بلفظ (أرأيت) ومعناها : اعجب يامخاطب من حال أبى جهل مع محمد (صلوات الله عليه) من حيث نهيه عن الصلاة ومن حيث أن المنهى عن الهدى آمر بالتقوى ، ومن حيث أن الناهى مكذب متول عن الايمان .

ثم يجىء الاستفهام الرابع للايقاظ والتنبية : ألم يعلم بأن الله يرى ما صدر منه فيجازيه عليه ، وفى هذا التنبيه ترشيح للردع والزجر والتهديد . كلا لئن لم ينته أبو جهل عما هو عليه من الكفر والأذى لمحمد ، فنأخذن بناصيته يوم القيامة وتطوى مع قدميه ويطرح فى النار ، مع الجذب الشديد والضرب الأليم بأيدى زبانية يعملون بأرجلهم كما يعملون بأيديهم ، ولن يحميه ناديه وهم أهل مجلسه وعزوته (وكان أبوجهل قد قال للنبى : لقد علمت مابها رجل أكثر ناديا منى لأملأن عليك هذا الوادى - ان شئت - خيلا جردا ورجالا مردا . قال ابن عباس : والله لودعا ناديه لأخذته الزبانية عيانا) .

ثم يختم الموقف بأمر الله لنبيه الكريم بالثبات المستقر والمضاء المستمر : لاتطعه يامحمد فى ترك الصلاة ، واسجد أى صل لله واقترب منه بطاعته .

وبالتأمل فى نسق السورة يبدو لنا التناسق الكامل بين مقاطعها الثلاثة ، والتسلسل فى ترتيب الحقائق التى عالجتها .

فالمقطع الأول تعليم وتربية . والمقطع الثانى علم نفس تربوى . والمقطع الثالث تطبيق عملى على غريزة الانسان فى مجال التربية .

مبادىء أخرى تتحراها هذه السور

أحدها :

عقيدة التوحيد وأثرها فى التعليم .

اقرأ باسم ربك الذى خلق ، أى الذى تفرد وحده بصفة الخلق والبدء . فالأساس هو الايمان بوحدة الخالق ، ايمانا خالصا نقيا لاشائبة فيه . هذا الايمان لوحدة الخالق يعلمنا كيف نوءمن بوحدة الكون المخلوق ، ووحدة القوانين العلمية وانضباطها فى كل زمان ومكان ، وأن الكون يسير عليها بأمر خالقه (ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

فالايمان بوحدة الكون نابع من عقيدة التوحيد لله ،توحيد الخالق الواحد الأزلى الابدى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

فالتوحيد أساس البحث العلمى السليم ، والدليل على ذلك ظاهر ، فأجسام الكائنات الحية التى خلقها الله تعالى كالانسان وغيره ، قانون تكوينها واحد ، وهو أنها تتكون من خلايا حية ، كل خلية منها ذات نواة ، حولها مادة هلامية هى السيتوبلازم . وفى داخل النواة شبكة الصبغيات وهى أجسام كيميائية معقدة (كروموزومات) . وكل كروموزوم يحمل آلافا من (الجينات) وهى المورثات أو حوامل الوراثة ، ويظن أن كل واحدة منها مسئولة عن احدى الخصائص الوراثية فى الكائن الحى .

وهكذا أثبت البحث العلمى أن قانون التكوين النووى واحد فى جميع الكائنات الحية .

وهنا تبدو لى ملحوظة عجيبة هى : (ما أشبه الطواف حول الكعبة ، بحركة الخلية حول نواتها ، فالكعبة كأنها نواة الخلية ، والناس فى طوافهم حولها كأنهم شبكة النواة فى تموجها ودورانها حول المحور . فتبارك الله أحسن الخالقين).

مبدأ آخر :

دعوة العقل البشرى الى البحث والتفكير والانطلاق فى اكتشاف ما أودعه الله سبحانه من أسرار الطبيعة البشرية والكونية ، وقد تتابعت الآيات الداعية الى هذا المبدأ بعد ذلك فى القرآن الكريم ، وما أكثرها .

وقد توصل الفكر الاسلامى الى وضع المنهج التجريبى فى البحث انطلاقا من هذا التوجيه القرآنى الكريم ، كان المسلمون الأوائل هم الرواد الذين قدموا للبشرية ثمرات البحث العلمى التجريبى .

فهذا (جابر بن حيان) الذى نبغ فى الكيمياء فى القرن الثانى للهجرة (توفى سنة ٢٠٠هـ - ٨١٥ ميلادية) .

و(أبوبكر الرازى) الذى نبغ فى الطب فى القرن الرابع للهجرة (توفى سنة ٣٢١هـ - ٩٢٤ميلادية) .

و(الحسن بن الهيثم) الذى نبغ فى الفيزياء (الطبيعة) فى القرن الخامس الهجرى (توفى سنة ٤٣٠هـ - ١٠٣٩ميلادية) وكفاه فخرا أنه أنشأ (علم الضوء) وأن كتابه (المناظر) يعد مرجعا عالميا فى هذا المجال .

و(ابن النفيس المصرى) مؤسس علم التشريح ومكتشف الدورة الدموية فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع الهجرى (توفى سنة ٦٠٧هـ - ١٢١٠ميلادية) .

والانسان : مامفهومه ؟ هل نتناوله بالدراسة من ناحية تكوينه وتشريحه ؟ نعم ، فالسورة توجهنا الى ذلك بقوله تعالى : (خلق الانسان من علق) ومن هنا يأتى الطب بمعلومة ، الصيدلة فأفانينها ، كما يبدأ طريق البحث فى العلوم الكونية كما فعل هؤلاء الرواد الأوائل من علماء المسلمين .

والانسان أيضا : مامفهومه مرة أخرى ؟ هل يمكن أن نتناوله بالدراسة من ناحية السلوك ؟ نعم ، فالسورة توجهنا أيضا الى ذلك بقوله تعالى : (ان الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى) ومن هنا يأتى علم النفس بفروعه وعلم التربية وتشعباته ، وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وسائر العلوم الانسانية (ونفس وماسواها) . (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) .

ومفهوم الانسان من ناحيتيه هاتين : التكوينية والسلوكية على ضوء معطيات هذه السورة ، هذا المفهوم لايتأتى السير فيه الا بالتفكير العلمى الذى يخدم الحضارة وترقى به الانسانية ، هذا النشاط الفكرى المقصود للكشف عن العلاقات القائمة بين

الظواهر المختلفة ، والتزام التصرف فى جوانبها بوعى وبصيرة . ولهذا يقول علماء التربية : ان التفكير العلمى هو الجانب الذكى فى الخبرة ، وذلك لانه يكشف العلاقة بين مانقوم به من خبرة وما نصل اليه من نتائج .

والتفكير العلمى ثمرة أكيدة لعقيدة التوحيد لله ، بل هو امتداد عملى لها ، اذ جاء الاسلام فأزال خوف الانسان من الطبيعة وحطم رهبتها من نفسه ، وأذلها وذللها بأمر الله لسيادة الانسان ، فقد بين له أن الطبيعة لم تزد على أنها مادة مسخرة بين يديه ، فلا رهبة من البحر ولاالرياح ولا الصحارى والجبال والغابات وسواها (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . " الجاثية ١٢ : ١٣).

ومادام هذا التسخير كله صادر منه تعالى وقد تعلقت به عقيدة التوحيد ، فهذه المسخرات كلها خاضعة بارادة الله للانسان ، وهو سيدها الآمر المتصرف فيها بفكره ويده وجميع قواه بأمر الله ومشيئته وهدايته .

.. ..

والآن ماذا نريد ؟

ماذا نريد الآن فى العالم العربى والاسلامى ؟ . أن اصحاب الحضارة العلمية الحديثة والسيطرة الكونية الراهنة ليسوا عربا وليسوا مسلمين .

فلماذا ؟ وها هو ذا كتاب الله فوق أيدينا يرسم لنا الطريق طريق القوة والسيادة والظهور فى الأرض . فهل استقر فى أعماقنا أم وضعناه فوق أيدينا فقط ؟

تساؤلات كثيرة . لماذا تقوم أمريكا بتهديد باكستان الدولة المسلمة ، عندما أعلنت باكستان عزمها على شراء محطة للتجارب النووية من فرنسا ؟

ولماذا تقوم أزمة سياسية بين أمريكا والهند ، حينما رفضت الهند اشراف امريكا على تجاربها النووية ؟

يقولون ان أهم مايشغل رئيس أمريكا هو مشكلة الطاقة ومايقوم عليها من تكنولوجيا البترول ومشتقاته الصناعية المتعددة . والطاقة فى أيدينا .

لماذا أصبحت منطقة الشرق الأوسط - العربى والاسلامى - أعظم سوق لشركات السلاح والاتجار فيها لاشعال الحرب .

ان احساسنا بهذا كله يدفعنا الى التفكير فى واقعنا . وليس واقعنا هذا أمرا مقضيا ، وانما هو عرض يطرأ ويزول وعلينا تغييره حتما .

فما العلة اذن ؟ . العلة هى القصور فى تطبيق الشريعة الاسلامية .

يبدو أننا فى ديار العرب والمسلمين وجهنا تفكيرنا

واهتمامنا الى الناحية النظرية ، وقصرنا تقصيرا ملحوظا فى الناحية المهنية العملية .

أذكر حديثا لمعالى الدكتور القصيبى وزير الصناعة والكهرباء بالمملكة العربية السعودية يتساءل فيه ، أويتطلع فيه الى أمل عزيز فيقول : البترول ينبع عندنا ويخرج من أرضنا فلماذا نُستورد البتروكيماويات أو الصناعات البترولية من الخارج ؟ يجب أن يكون تصنيع المادة الخام فوق أرضها هى ، وبأيدى أبناء هذه الأرض أنفسهم وبتفكيرهم وسيطرتهم ، لماذا تنقل من عندنا ثم نجرى وراءها لننقلها الينا ثانية ؟

واذكر أنه قال أيضا : لقد بدأنا أول الطريق ، ولكن مازلنا فى مرحلة الآمال .

وأنا بدورى أقول : ان التقدم العلمى والتكنولوجى يفرض على العرب والمسلمين أن يتجهوا الى الجمع بين الخبرةالنظرية والخبرة العملية فى التعليم ، وأن تصبح المدارس والمعاهد والجامعات منطقا للسيطرة على البيئة واستغلالها وتسخير قواها . ولعل فكرة المدرسة الشاملة تحقق هذا الاتجاه .

وتقوم فكرة (المدرسة الشاملة) على تحقيق الربط بين المواد النظرية الأكاديمية والمواد المهنية العملية والمواد الفنية . كما تحقق ازالة الحواجز بين التعيم الفنى والتعليم العام . فهى كما تعد الطالب لمواصلة الدراسة من مرحلة الى مرحلة أعلى منها ، تعده فىالوقت نفسه للحياة العامة اذا لم تساعده الظروف على مواصلة التعليم .

وتوضح الخطة العامة للتعليم فى هذه المدارس بحيث تتضمن حصص المجالات العملية فى المعامل والورش ، دون زيادة فى حصص الأسبوع المعتادة ، وذلك بالتوفيق بين الحصص اللازمة للنظرى والحصص اللازمة للعملى • وتتنوع مناهجها تبعا لتنوع البيئة ، وما يمكن أن تقدمه كل بيئة من امكانات بشرية ومادية •

هذا ، مع الاهتمام الشديد والأكيد بأن تتغلغل التربية الاسلامية فى كل مادة دراسية •

وطلاب المدرسة الشاملة يمكن أن تهيىء لهم الخطة فرصة الخروج الى الحياة العامة يوما أو يومين فى الاسبوع بين المصانع والمزارع ودواوين الحكومة والمؤسسات ، لكى يتدربوا على الحياة العملية وفق ميول كل منهم واتجاهاته ، ويقسمون الى مجموعات عمل تخصصية •

وهذه الفكرة يمكن تطبيقها على ضوء التربية الاسلامية التى تدعو بقوة الى الربط بين العلم والعمل ، والتدبر فى ملكوت الله على أساس الالتحام بالاسرار الكونية ، والاحتكاك بالقوى الطبيعية والتعامل معها جميعا تعاملا يدعو الى الايمان العميق بقدرة الخالق وحق استخلافه للناس فى الارض • فالكون هو رابطة الانسان بالله ، ومادام قد استخلفه فيه ، وجب عليه أن يقوم بخلافته خير قيام • وهنا تتم الرابطة العظمى بين عبادة الله وبين السيطرة على هذا الكون • وهذه هى العبادة البصيرة التى تحقق غاية الوجود الانسانى فى ملك الله •

ان التعليم العام فى العالم العربى والعالم الاسلامى يحتاج الى تخطيط جديد يقوم على أساس التمهين والتحديث ، أى ربط التعليم بالمهن على أحدث صورة عصرية وبروح اسلامية .

وعلى رجال التعليم الدينى وطلبته والدعاة الى الله - وهم جميعا هداة هذه الأمة - عليهم أن يحملوا لواء الدعوة الى القوة والسيادة والظهور فى الأرض ، فهم أفهم الناس لما فى هذا الدين من أسرار . عليهم أن يزرعوا فى أعماق الناس هذا المبدأ القرآنى (وقل اعملوا) . عليهم أن يتمثلوا دائما أن تعليمهم الدينى يعطيهم حق التوجيه ، وأن عليهم تبعة ايجابية هى بناء الحياة بالدين وأن الدين فى خدمة الحياة ، ولادين قوى بدون حياة قوية .

والله هو المستعان .

.. ..